أنه لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال! أو أنه في كل مكان!!

فهذه من أدلة الكتاب والسنة.

ثالثاً: وأما دلالة الإجماع؛ فقد أجمع السلف على أن الله تعالى بذاته في السماء، من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، إلى يومنا هذا.

إن قلت: كيف أجمعوا؟

نقول: إمرارهم هذه الآيات والأحاديث مع تكرار العلو فيها والفوقية ونزول الأشياء منه وصعودها إليه دون أن يأتوا بما يخالفها إجماع منهم على مدلولها.

ولهذا لما قال شيخ الإسلام: «إن السلف مجمعون على ذلك»؛ قال: «ولم يقل أحد منهم: إن الله ليس في السماء، أو: إن الله في الأرض، أو: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل، أو: إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه».

رابعاً: وأما دلالة العقل؛ فنقول: لا شك أن الله عز وجل إما أن يكون في العلو أو في السفل، وكونه في السفل مستحيل؛ لأنه نقص يستلزم أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته فلا يكون له العلو التام والسيطرة التامة والسلطان التام؛ فإذا كان السفل مستحيلاً؛ كان العلو واجباً.

وهناك تقرير عقلي آخر، وهو أن نقول: إن العلو صفة كمال باتفاق العقلاء، وإذا كان صفة كمال؛ وجب أن يكون ثابتاً لله؛ لأن كل صفة كمال مطلقة؛ فهي ثابتة لله.

وقولنا: «مطلقة»: احترازاً من الكمال النسبي، الذي يكون كمالاً في حال دون حال؛ فالنوم مثلاً نقص، ولكن لمن يحتاج إليه ويستعيد قوته به كمال.

خامساً: وأما دلالة الفطرة: فأمر لا يمكن المنازعة فيها ولا المكابرة؛ فكل إنسان مفطور على أن الله في السماء، ولهذا عندما يفجؤك الشيء الذي لا تستطيع دفعه، وإنما تتوجه إلى الله تعالى بدفعه؛ فإن قلبك ينصرف إلى السماء حتى الذين ينكرون علو الذات لا يقدرون أن ينزلوا أيديهم إلى الأرض.

وهذه الفطرة لا يمكن إنكارها.

حتى إنهم يقولون: إن بعض المخلوقات العجماء تعرف أن الله في السماء؛ كما في الحديث الذي يروى أن سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وعلى أبيه خرج يستسقي ذات يوم بالناس، فلما خرج؛ رأى نملة مستلقيةً على ظهرها، رافعة قوائمها نحو السماء، تقول:

«اللهم! إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنىً عن سقياك. فقال: ارجعوا؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم[1]. وهذا إلهام فطري.

---

(١) تقدم (ص ٥٨).

فالحاصل أن: كون الله في السماء أمر معلوم بالفطرة.

والله؛ لولا فساد فطرة هؤلاء المنكرين لذلك؛ لعلموا أن الله في السماء بدون أن يطالعوا أي كتاب؛ لأن الأمر الذي تدل عليه الفطرة لا يحتاج إلى مراجعة الكتب.

* والذين أنكروا علوَّ الله عز وجل بذاته يقولون: لو كان في العلو بذاته؛ كان في جهة، وإذا كان في جهةٍ؛ كان محدوداً وجسماً، وهذا ممتنع!

والجواب عن قولهم: «إنه يلزم أن يكون محدوداً وجسماً»؛ نقول:

أولاً: لا يجوز إبطال دلالة النصوص بمثل هذه التعليلات، ولو جاز هذا؛ لأمكن كل شخص لا يريد ما يقتضيه النص أن يعلله بمثل هذه العلل العليلة.

فإذا كان الله أثبت لنفسه العلو، ورسوله ﷺ أثبت له العلو، والسلف الصالح أثبتوا له العلو؛ فلا يقبل أن يأتي شخص ويقول: لا يمكن أن يكون علو ذات؛ لأنه لو كان علو ذات؛ لكان كذا وكذا.

ثانياً: نقول: إن كان ما ذكرتم لازماً لإثبات العلو لزوماً صحيحاً؛ فلنقل به؛ لأن لازم كلام الله ورسوله حق؛ إذ أن الله تعالى يعلم ما يلزم من كلامه. فلو كانت نصوص العلو تستلزم معنىً فاسداً؛ لبينه، ولكنها لا تستلزم معنى فاسداً.

ثالثاً: ثم نقول: ما هو الحد والجسم الذي أجلبتم علينا بخيلكم ورجلكم فيها.

أتريدون بالحد أن شيئاً من المخلوقات يحيط بالله؟! فهذا باطل ومنتف عن الله، وليس بلازم من إثبات العلو لله أو تريدون بالحد أن الله بائن من خلقه غير حال فيهم؟ فهذا حق من حيث المعنى، ولكن لا نطلق لفظه نفياً ولا إثباتاً؛ لعدم ورود ذلك.

وأما الجسم؛ فنقول: ماذا تريدون بالجسم؟ أتريدون أنه جسم مركب من عظم ولحم وجلد ونحو ذلك؟ فهذا باطل ومنتف عن الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. أم تريدون بالجسم ما هو قائم بنفسه متصف بما يليق به؟ فهذا حق من حيث المعنى، لكن لا نطلق لفظه نفياً ولا إثباتاً؛ لما سبق.

وكذلك نقول في الجهة؛ هل تريدون أن الله تعالى له جهة تحيط به؟ فهذا باطل، وليس بلازم من إثبات علوه. أم تريدون جهة علو لا تحيط بالله؟ فهذا حق لا يصح نفيه عن الله تعالى.

الآية الثانية: قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨].

* ﴿بَل﴾: للإضراب الإبطالي؛ لإبطال قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨]؛ فكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾.

والشاهد قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾؛ فإنه صريح بأن الله تعالى عال بذاته؛ إذ الرفع إلى الشيء يستلزم علوه.

الآية الثالثة: قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠].

* ﴿إِلَيۡهِ﴾: إلى الله عز وجل.

* ﴿يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: و﴿ٱلۡكَلِمُ﴾ هنا اسم جمع، مفرده كلمة، وجمع كلمة كلمات، والكلم الطيب يشمل كل كلمة يتقرّب بها إلى الله؛ كقراءة القرآن والذكر والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فكل كلمة تقرب إلى الله عز وجل؛ فهي كلمة طيبة، تصعد إلى الله عز وجل، وتصل إليه، والعمل الصالح يرفعه الله إليه أيضاً.

فالكلمات تصعد إلى الله، والعمل الصالح يرفعه الله، وهذا يدل على أن الله عال بذاته؛ لأن الأشياء تصعد إليه وترفع.

الآية الرابعة: قوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

هامان وزير فرعون، والآمر بالبناء فرعون.

* ﴿صَرۡحٗا﴾؛ أي: بناء عالياً.

* ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ يعني: لعلي أبلغ الطرق التي توصل إلى السماء.

* ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ يعني: أنظر إليه، وأصل إليه مباشرة؛ لأن موسى قال له: إن الله في السماء. فموه فرعون على قومه بطلب بناء هذا الصرح العالي ليرقى عليه ثم يقول: لم أجد أحداً، ويحتمل أنه قاله على سبيل التهكم؛ يقول: إن موسى قال: إن إلهه في السماء، اجعلونا نرقى لنراه!! تهكماً.

وأيّاً كان؛ فقد قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾؛ للتمويه على قومه، وإلا؛ فهو يعلم أنه صادق، وقد قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ فلم يقل: ما علمتُ! بل أقره على هذا الخبر المؤكد باللام و(قد) والقسم. والله عز وجل يقول في آية أخرى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

* الشاهد من هذا: أن أمر فرعون ببناء صرح يطلع به على إله موسى يدل على أن موسى ﷺ قال لفرعون وآله: إن الله في السماء. فيكون علو الله تعالى ذاتيّاً قد جاءت به الشرائع السابقة.

الآية الخامسة والسادسة: قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧].

* والذي في السماء هو الله عز وجل، لكنه كنَّى عن نفسه بهذا؛ لأن المقام مقام إظهار عظمته، وأنه فوقكم، قادر عليكم، مسيطر عليكم، مهيمن عليكم؛ لأن العالي له سلطة على من تحته.

* ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾؛ أي: تضطرب.

والجواب: لا نأمن والله! بل نخاف على أنفسنا إذا كثرت معاصينا أن تخسف بنا الأرض.

والانهيارات التي يسمونها الآن: انهياراً أرضيّاً، وانهياراً جبليّاً... وما أشبه ذلك هي نفس التي هدد الله بها هنا، لكن يأتون بمثل هذه العبارات ليهونوا الأمر على البسطاء من الناس.

* ﴿أَمْ أَمِنتُم﴾؛ يعني: بل أأمنتم، و(أم) هنا بمعنى (بل) والهمزة.

* ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾: الحاصب عذاب من فوق يحصبون به؛ كما فعل بالذين من قبلهم؛ كقوم لوط وأصحاب الفيل، والخسف من تحت.

فالله عز وجل هدّدنا من فوق ومن تحت؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؛ أربعة أنواع من العذاب.

وهنا ذكر الله نوعين منها: الحاصب والخسف.

والشاهد من هذه الآية هو قوله: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

والذي في السماء هو الله عز وجل، وهو دليل على علو الله بذاته.

لكن ها هنا إشكال، وهو أن (في) للظرفية؛ فإذا كان الله في السماء، و(في) للظرفية؛ فإن الظرف محيط بالمظروف! أرأيت لو

قلت: الماء في الكأس؛ فالكأس محيط بالماء وأوسع من الماء! فإذا كان الله يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فهذا ظاهره أن السماء محيطة بالله، وهذا الظاهر باطل، وإذا كان الظاهر باطلاً؛ فإننا نعلم علم اليقين أنه غير مراد لله؛ لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة باطلاً.

فما الجواب على هذا الإشكال؟

قال العلماء: الجواب أن نسلك أحد طريقين:

١ ـ فإما أن نجعل السماء بمعنى العلو، والسماء بمعنى العلو وارد في اللغة، بل في القرآن؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، والمراد بالسماء العلو؛ لأن الماء ينزل من السحاب لا من السماء التي هي السقف المحفوظ، والسحاب في العلو بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فيكون معنى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من في العلو.

ولا يوجد إشكال بعد هذا؛ فهو في العلو، ليس يحاذيه شيء، ولا يكون فوقه شيء.

٢ ـ أو نجعل (في) بمعنى (على)، ونجعل السماء هي السقف المحفوظ المرفوع؛ يعني: الأجرام السماوية، وتأتي (في) بمعنى (على) في اللغة العربية، بل في القرآن الكريم، قال فرعون لقومه السحرة الذين آمنوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:

٧١]؛ أي: على جذوع النخل.

فيكون معنى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من على السماء.

ولا إشكال بعد هذا.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؟!

فالجواب: أن نقول:

أما الآية الأولى؛ فإن الله يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ فالظرف هنا لألوهيته؛ يعني: أن ألوهيته ثابتة في السماء وفي الأرض؛ كما تقول: فلان أمير في المدينة ومكة؛ فهو نفسه في واحدة منهما، وفيهما جميعاً بإمارته وسلطته؛ فالله تعالى ألوهيته في السماء وفي الأرض، وأما هو عز وجل ففي السماء.

أما الآية الثانية: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]؛ فنقول فيها كما قلنا في التي قبلها: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وهو الإلٰه الذي ألوهيته في السماوات وفي الأرض، أما هو نفسه؛ ففي السماء. فيكون المعنى: هو المألوه في السماوات المألوه في الأرض؛ فألوهيته في السماوات وفي الأرض.

فتخريج هذه الآية كتخريج التي قبلها.

وقيل: المعنى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثم تقف، ثم تقرأ:

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٣]؛ أي أنه نفسه في السماوات، ويعلم سركم وجهركم في الأرض؛ فليس كونه في السماء مع علوه بمانع من علمه بسركم وجهركم في الأرض.

وهذا المعنى فيه شيء من الضعف؛ لأنه يقتضي تفكيك الآية وعدم ارتباط بعضها ببعض، والصواب الأول: أن نقول: ﴿ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ يعني أن ألوهيته ثابتة في السماوات وفي لأرض، فتطابق الآية الأخرى.

من الفوائد المسلكية في هذه الآيات:

أن الإنسان إذا علم بأن الله تعالى فوق كل شيء؛ فإنه يعرف مقدار سلطانه وسيطرته على خلقه، وحينئذ يخافه ويعظمه، وإذا خاف الإنسان ربه وعظمه؛ فإنه يتقيه ويقوم بالواجب ويدع المحرم.

* * *

● **إثبات معية الله لخلقه:**

الشرح:

شرع المؤلف بسوق أدلة المعية؛ أي: أدلة معية الله تعالى لخلقه، وناسب أن يذكرها بعد العلو؛ لأنه قد يبدو للإنسان أن هناك تناقضاً بين كونه فوق كل شيء وكونه مع العباد، فكان من المناسب جداً أن يذكر الآيات التي تثبت معية الله للخلق بعد ذكر آيات العلو.

وفي معية الله تعالى لخلقه مباحث:

*** المبحث الأول في أقسامها:**

معية الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة.

والخاصة تنقسم إلى قسمين: مقيدة بشخص، ومقيدة بوصف.

ـ أما العامة؛ فهي التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر. ودليلها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أ ـ أما الخاصة المقيدة بوصف؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ب ـ وأما الخاصة المقيدة بشخص معين؛ فمثل قوله تعالى عن نبيه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وهذه أخص من المقيدة بوصف.

فالمعية درجات: عامة مطلقة، وخاصة مقيدة بوصف، وخاصة مقيدة بشخص.

فأخص أنواع المعية ما قيد بشخص، ثم ما قيد بوصف، ثم ما كان عاماً.

فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسمعاً

وبصراً وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته، والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد.

*** المبحث الثاني: هل المعية حقيقية أو هي كناية عن علم الله عز وجل وسمعه وبصره وقدرته وسلطانه وغير ذلك من معاني ربوبيته؟**

أكثر عبارات السلف رحمهم الله يقولون: إنها كناية عن العلم وعن السمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك، فيجعلون معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ أي: وهو عالم بكم سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم قادر عليكم حاكم بينكم... وهكذا، فيفسرونها بلازمها.

واختار شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الكتاب وغيره أنها على حقيقتها، وأن كونه معنا حق على حقيقته، لكن ليست معيته كمعية الإنسان للإنسان التي يمكن أن يكون الإنسان مع الإنسان في مكانه؛ لأن معية الله عز وجل ثابتة له وهو في علوه؛ فهو معنا وهو عال على عرشه فوق كل شيء، ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يكون معنا في الأمكنة التي نحن فيها.

وعلى هذا؛ فإنه يحتاج إلى الجمع بينها وبين العلو.

والمؤلف عقد لها فصلاً خاصّاً سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وأنه لا منافاة بين العلو والمعية؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فهو علي في دنوه، قريب في علوه[1].

---

(١) انظر بدايات الجزء الثاني.

وضرب شيخ الإسلام رحمه الله لذلك مثلاً بالقمر؛ قال: إنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، وهو موضوع في السماء، وهو من أصغر المخلوقات؛ فكيف لا يكون الخالق عز وجل مع الخلق، الذي الخلق بالنسبة إليه ليسوا بشيء، وهو فوق سماواته؟!

وما قاله رحمه الله فيه دفع حجة بعض أهل التعطيل حيث احتجوا على أهل السنة، فقالوا: أنتم تمنعون التأويل، وأنتم تؤولون في المعية؛ تقولون: المعية بمعنى العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وما أشبه ذلك.

فنقول: إن المعية حق على حقيقتها، لكنها ليست على المفهوم الذي فهمه الجهمية ونحوهم؛ بأنه مع الناس في كل مكان وتفسير بعض السلف لها بالعلم ونحوه تفسير باللازم.

*** المبحث الثالث: هل المعية من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية؟**

فيه تفصيل:

- أما المعية العامة؛ فهي ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال محيطاً بالخلق علماً وقدرةً وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته.

- وأما المعية الخاصة؛ فهي صفة فعلية؛ لأنها تابعة لمشيئة الله، وكل صفة مقرونة بسبب هي من الصفات الفعلية؛ فقد سبق لنا أن الرضى من الصفات الفعلية؛ لأنه مقرون بسبب، إذا وجد السبب الذي به يرضى الله؛ وجد الرضى، وكذلك المعية الخاصة؛

إذا وجدت التقوى أو غيرها من أسبابها في شخص؛ كان الله معه.

*** المبحث الرابع في المعية: هل هي حقيقية أو لا؟**

ذكرنا ذلك، وأن من السلف من فسرها باللازم، وهو الذي لا يكاد يرى الإنسان سواه. ومنهم من قال: هي على حقيقتها، لكنها معية تليق بالله، خاصة به.

وهذا صريح كلام المؤلف هنا في هذا الكتاب وغيره، لكن تصان عن الظنون الكاذبة؛ مثل أن يظن أن الله معنا في الأرض ونحو ذلك؛ فإن هذا باطل مستحيل!

*** المبحث الخامس في المعية: هل بينها وبين العلو تناقض؟**

الجواب: لا تناقض بينهما؛ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الله جمع بينهما فيما وصف به نفسه، ولو كانا يتناقضان ما صح أن يصف الله بهما نفسه.

الوجه الثاني: أن نقول: ليس بين العلو والمعية تعارض؛ أصلاً، إذ من الممكن أن يكون الشيء عالياً وهو معك، ومنه ما يقوله العرب: القمر معنا ونحن نسير، والشمس معنا ونحن نسير، والقطب معنا ونحن نسير، مع أن القمر والشمس والقطب كلها في السماء؛ فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية في المخلوق؛ فاجتماعهما في الخالق من باب أولى.

أرأيت لو أن إنساناً على جبلٍ عالٍ، وقال للجنود: اذهبوا إلى مكان بعيد في المعركة، وأنا معكم، وهو واضع المنظار على

عينيه، ينظر إليهم من بعيد، فصار معهم؛ لأنه الآن يبصرهم كأنهم بين يديه، وهو بعيد عنهم؛ فالأمر ممكن في حق المخلوق؛ فكيف لا يمكن في حق الخالق؟!

الوجه الثالث: أنه لو تعذر اجتماعهما في حق المخلوق؛ لم يكن متعذراً في حق الخالق؛ لأن الله أعظم وأجل، ولا يمكن أن تقاس صفات الخالق بصفات المخلوقين؛ لظهور التباين بين الخالق والمخلوق.

والرسول ﷺ يقول في سفره: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل»[١]؛ فجمع بين كونه صاحباً له وخليفةً له في أهله، مع أنه بالنسبة للمخلوق غير ممكن، لا يمكن أن يكون شخص ما صاحباً لك في السفر وخليفة لك في أهلك.

وثبت في الحديث الصحيح[٢]: أن الله عز وجل يقول إذا قال المصلي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: «حمدني عبدي».

كم من مصلٍّ يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾!

لا يحصون.

وكم من مصلِّيين؛ أحدهما يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والثاني يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكل واحد منهما له رد؛ الذي يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٢)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٣٩٥)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يقول الله له: «حمدني عبدي». والذي يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يقول الله له: «هذا بيني وبين عبدي نصفين»...

إذاً؛ يمكن أن يكون الله معنا حقّاً وهو على عرشه في السماء حقّاً، ولا يفهم أحد أنهما يتعارضان؛ إلا من أراد أن يمثل الله بخلقه، ويجعل معية الخالق كمعية المخلوق.

ونحن بيَّنّا إمكان الجمع بين نصوص العلو ونصوص المعية، فإن تبين ذلك، وإلا؛ فالواجب أن يقول العبد: آمنت بالله ورسوله، وصدّقت بما قال الله عن نفسه ورسوله، ولا يقول: كيف يمكن؟! منكراً ذلك!

إذا قال: كيف يمكن؟! قلنا: سؤالك هذا بدعة، لم يسأل عنه الصحابة، وهم خير منك، ومسؤولهم أعلم من مسؤولك وأصدق وأفصح وأنصح، عليك أن تصدق، لا تقل: كيف؟ ولا لم؟ ولكن سلم تسليماً.

تنبيه:

تأمل في الآية؛ تجد كل الضمائر تعود على الله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فكذلك ضمير ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ فيجب علينا أن نؤمن بظاهر الآية الكريمة، ونعلم علم اليقين أن هذه المعية لا تقتضي أن يكون الله معنا في الأرض، بل هو معنا مع استوائه على العرش.

هذه المعية؛ إذا آمنا بها؛ تُوجب لنا خشية الله عز وجل وتقواه. ولهذا جاء في الحديث: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت»(١).

أما أهل الحلول؛ فقالوا: إن الله معنا بذاته في أمكنتنا، إن كنت في المسجد؛ فالله معك في المسجد! والذين في السوق الله معهم في السوق!! والذين في الحمامات الله معهم في الحمامات!!

ما نزَّهوه عن الأقذار والأنتان وأماكن اللهو والرفث!!

*** المبحث السادس: في شبهة القائلين بأن الله معنا في أمكنتنا والرد عليهم:**

شبهتهم: يقولون: هذا ظاهر اللفظ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ لأن كل الضمائر تعود على الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وإذا كان معنا؛ فنحن لا نفهم من المعية إلا المخالطة أو المصاحبة في المكان!!

والرد عليهم من وجوه:

أولاً: أن ظاهرها ليس كما ذكرتم؛ إذ لو كان الظاهر كما ذكرتم؛ لكان في الآية تناقض: أن يكون مستوياً على العرش، وهو

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط كما في مجمع الزوائد (١/ ٦٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤) والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٠٠٢).
وقد ورد الحديث بلفظ: «تزكية النفس أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان» رواه البيهقي في «السنن» (٤/٩٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٠٦٢)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٢٦٩) بسند صحيح؛ كما في «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٦).

مع كل إنسان في أي مكان! والتناقض في كلام الله تعالى مستحيل.

ثانياً: قولكم: «إن المعية لا تعقل إلا مع المخالطة أو المصاحبة في المكان»! هذا ممنوع؛ فالمعية في اللغة العربية اسم لمطلق المصاحبة، وهي أوسع مدلولاً مما زعمتم؛ فقد تقتضي الاختلاط، وقد تقتضي المصاحبة في المكان، وقد تقتضي مطلق المصاحبة وإن اختلف المكان؛ هذه ثلاثة أشياء:

١ ـ مثال المعية التي تقتضي المخالطة: أن يقال: اسقوني لبناً مع ماء؛ أي: مخلوطاً بماء.

٢ ـ ومثال المعية التي تقتضي المصاحبة في المكان: قولك: وجدت فلاناً مع فلان يمشيان جميعاً وينزلان جميعاً.

٣ ـ ومثال المعية التي لا تقتضي الاختلاط ولا المشاركة في المكان: أن يقال: فلان مع جنوده. وإن كان هو في غرفة القيادة، لكن يوجههم. فهذا ليس فيه اختلاط ولا مشاركة في مكان.

ويقال: زوجة فلان معه. وإن كانت هي في المشرق وهو في المغرب.

فالمعية إذاً كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكما هو ظاهر من شواهد اللغة: مدلولها مطلق المصاحبة، ثم هي بحسب ما تضاف إليه.

فإذا قيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ فلا

يقتضي ذلك لا اختلاطاً ولا مشاركة في المكان، بل هي معية لائقة بالله، ومقتضاها النصر والتأييد.

ثالثاً: نقول: وصفكم الله بهذا! من أبطل الباطل وأشد التنقص لله عز وجل، والله عز وجل ذكر ها هنا عن نفسه متمدحاً؛ أنه مع علوه على عرشه؛ فهو مع الخلق، وإن كانوا أسفل منه، فإذا جعلتم الله في الأرض؛ فهذا نقص.

إذا جعلتم الله نفسه معكم في كل مكان، وأنتم تدخلون الكنف؛ هذا أعظم النقص، ولا تستطيع أن تقوله ولا لملك من ملوك الدنيا: إنك أنت في الكنيف! لكن كيف تقوله لله عز وجل؟! وهل هذا إلا أعظم النقص والعياذ بالله؟!

رابعاً: يلزم على قولكم هذا أحد أمرين لا ثالث لهما، وكلاهما ممتنع: إما أن يكون الله متجزِّئاً، كل جزء منه في مكان.

وإما أن يكون متعدداً؛ يعني: كل إله في جهة ضرورة تعدد الأمكنة.

خامساً: أن نقول: قولكم هذا أيضاً يستلزم أن يكون الله حالاًّ في الخلق؛ فكل مكان في الخلق؛ فالله تعالى فيه، وصار هذا سلماً لقول أهل وحدة الوجود.

فأنت ترى أن هذا القول باطل، ومقتضى هذا القول الكفر.

ولهذا نرى أن من قال: إن الله معنا في الأرض؛ فهو كافر؛ يستتاب، ويبين له الحق، فإن رجع، وإلاَّ؛ وجب قتله.

* وهذه آيات المعية:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]:

والشاهد فيها قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وهذه من المعية العامة؛ لأنها تقتضي الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وسمعاً وبصراً وغير ذلك من معاني الربوبية.

الآية الثانية: قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

* قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾: ﴿يَكُونُ﴾؛ تامة يعني: ما يوجد.

* وقوله: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾: قيل: إنها من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وأصلها: من ثلاثة نجوى، ومعنى ﴿نَّجْوَىٰ﴾؛ أي: متناجين.

* وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، ولم يقل: إلا هو ثالثهم؛ لأنه من غير الجنس، وإذا كان من غير الجنس؛ فإنه يؤتى بالعدد التالي، أما إذا كان من الجنس؛ فإنه يؤتى بنفس العدد، انظر إلى قوله تعالى عن النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ولم يقولوا: ثالث اثنين؛ لأنه من الجنس

على زعمهم! فعندهم كل الثلاثة آلهة، فلما كان من الجنس على زعمهم؛ قالوا فيه: ثالث ثلاثة.

* قوله: ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ ذكر العدد الفردي ثلاثة وخمسة، وسكت عن العدد الزوجي، لكنه داخل في قوله: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾: الأدنى من ثلاثة اثنان، ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ من خمسة، ستة فما فوق.

ما من اثنين فأكثر يتناجيان بأي مكان من الأرض؛ إلا والله عز وجل معهم.

وهذه المعية عامة؛ لأنها تشمل كل أحد: المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، ومقتضاها الإحاطة بهم علماً وقدرةً وسمعاً وبصراً وسلطاناً وتدبيراً وغير ذلك.

* وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ يعني: أن هذه المعية تقتضي إحصاء ما عملوه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ نبأهم بما عملوا؛ يعني: أخبرهم به وحاسبهم عليه؛ لأن المراد بالإنباء لازمه، وهو المحاسبة، لكن إن كانوا مؤمنين؛ فإن الله تعالى يحصي أعمالهم، ثم يقول: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

* وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾: كل شيء موجود أو معدوم، جائز أو واجب أو ممتنع، كل شيء؛ فالله عليم به.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٢٥٣)، وهو في الصحيحين.

وقد سبق لنا الكلام على صفة العلم، وأن علم الله يتعلق بكل شيء، حتى بالواجب والمستحيل، والصغير والكبير، والظاهر والخفي.

الآية الثالثة: قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

* الخطاب لأبي بكر من النبي ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]:

* **أولاً:** نصره حين الإخراج و﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

* **ثانياً:** وعند المكث في الغار ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾.

* **ثالثاً:** عند الشدة حينما وقف المشركون على فم الغار: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾.

فهذه ثلاثة مواقع بيَّن الله تعالى فيها نصره لنبيه ﷺ.

وهذا الثالث حين وقف المشركون عليهم؛ يقول أبو بكر: «يا رسول الله! لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا»(١)؛ يعني: إننا على خطر؛ كقول أصحاب موسى لما وصلوا إلى البحر: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وهنا قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. فطمأنه، وأدخل الأمن في نفسه، وعلل ذلك بقوله:

---

(١) رواه: البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.